الفصل الثانى

مساجد القاهرة وطرز العمارة الدينية

المبحث الأول

طرز العمارة الدينية فى مصر خلال العصر الإسلامى

لتوضيح مبادئ المعمار الإسلامى الذى انتشر فى مصر على مر العصور الإسلامية يجب علينا متابعة تطور فن العمارة الإسلامية بداية من أيام الإسلام الأولى وفتح مصر، ولابد أيضا أن نتبين الفوارق بين طرز المعمار المختلفة على مر العصور الإسلامية، فهناك مجموعة من الطرز المختلفة للعمارة الإسلامية، بدءا من الطراز العربى البسيط والذى يعود إلى الأيام الأولى فى الإسلام، ثم الطراز الأموى الذى يعود إلى فترة حكم الأمويين، والطراز العباسى الذى ينتمى للدولة، والطراز الفاطمى نسبة إلى الفاطميين، والطراز الأيوبى نسبة إلى الأيوبيين، والطراز المملوكى نسبة إلى المماليك، ثم الطراز العثمانى وعصر أسرة محمد على فى مصر.

تميز الإسلام عند ظهوره بالبساطة الشديدة والصرامة وانعكست هاتين الخاصتين على فن العمارة الإسلامية فى هذا الوقت. وإذا نظرنا إلى مسجد قباء والمسجد ذى القبلتين والمسجد النبوى فى صورته الأول، فإننا نجد أمثلة لذلك الأسلوب البسيط فى العمارة. فقد بنى الرسول ﷺ

المسجد النبوى على شكل ساحة كبيرة مفتوحة، غطيت بعض أجزاء منها بأوراق النخيل الموضوعة على أفرع النخيل والتى تمتد على أعمدة من النخيل، غاية فى البساطة والصرامة. حتى عند التجديد، ظلت هذه المساجد على نفس بساطتها بالمقارنة بالمساجد الأخرى. ولقد ظهر تأثير بساطة أيام الإسلام الأولى فى مساجد البدو وقبائل الصحراء فى الصحراء العربية وشمال أفريقيا مصر والمغرب العربى.

فقد بنى الرسول عليه الصلاة والسلام مسجدا جامعا حين استقر المسلمون بالمدينة المنورة، وكانت وظيفة هذا المبنى لتجمع المسلمين للصلاة الجامعة يوم الجمعة، وتعلم مبادئ الدين الجديد وتلقى ما ينزل من القرآن. وكان يتكون من سور من الطوب اللبن بنى به مكان مظلل للصلاة من جذوع النخيل، وباقى المساحة داخل السور مكشوفة، وتطور المبنى بعد ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين إلى أن أصبح الجزء المظلل يلتف حول صحن مكشوف، ومن هنا نشأ نموذج المسجد الجامع الذى انتشر فى العالم الإسلامى، وفى مصر عدة نماذج له أقدمها جامع عمرو بن العاص الحالى وجامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر. وأضيف للجامع فى عهد الرسول منبرا من الخشب أتى من مصر، وكان يستخدم رمح لتحديد اتجاه القبلة، فأضاف المسلمون بعد ذلك المحراب الذى كان منتشرا فى الحضارة البيزنطية بعد انتشار الدين المسيحى، لأن المسلمين وجدوا هذا التجويف مناسبا لتحديد اتجاه القبلة، ولوقوف الإمام به دون أن يأخذ صفا وحده، كما استعانوا بشكل القبة ووضعوها

أعلى المحراب والمنبر لتهوية هذه المنطقة وإضاءتها والمساعدة على تكثيف الصوت لتوصيل صوت الإمام لأكبر عدد ممكن من المصلين.

وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهاء خلافة الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى انتهى عهد البساطة والصرامة لتبدأ الدولة الأموية حكمها من الشام وعاصمتها دمشق. وكانت مصر وسوريا وفلسطين وكل بلاد الشام مقاطعة مسيحية وجزء من الإمبراطورية البيزنطية. لذا تأثر الأمويون الأوائل بطراز العمارة المسيحى تأثرا كبيرا يظهر بوضوح فى المسجد الأموى فى دمشق. وفى ذلك الوقت أعيد بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة بطريقة تشير إلى التأثير المسيحى مع إدخال بعض خصائص العمارة الإسلامية الجديدة. وأضيفت القباب والمنارات وأسلوب الديكور العربى إلى طراز العمارة المسيحى ليكونوا بذلك الطراز الأموى للعمارة وكانت إضافة الكتابة العربية لأجزاء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف فى زخرفة المساجد لمسة رائعة، وهو ما انتقل إلى مصر وظهر هذا التطور فى عمارة مسجد عمرو بن العاص كأول مسجد يشيد بمصر وشمال أفريقيا عامة.

واستخدم المسلمون سطح الجامع لوقوف المؤذن، ولكن مع الدولة الأموية استعاروا الأبراج من المبانى الدينية السابقة لاستعمالها فى الآذان، ومن أقدم مآذن القاهرة المتأثرة بشكل الأبراج مئذنة جامع الجيوشى أعلى جبل المقطم بالقاهرة التى ترجع إلى العصر الفاطمى، كما قلد المسلمون الزخارف الجدارية التى وجدوها فى الحضارات السابقة

سواء على الجص أو بالفسيفساء متعددة الأشكال، ولكن بعد الاستغناء عن الرسوم الآدمية والحيوانية والاحتفاظ بالزخارف النباتية والمناظر الطبيعية من نخيل وأشجار وأنهار وقناطر التى ذكرت فى وصف الجنة فى القرآن ونفذوها فى الجامع الأموى بدمشق وقبة الصخرة بالقدس الشريف. وبذلك اكتمل الشكل العام للمسجد الجامع.

تطور تخطيط المسجد

أدى سقوط الدولة الأموية فى دمشق إلى بداية عهد الدولة العباسية التى حكمت البلاد من بغداد بالعراق، وهى واحدة من أكثر المدن الإسلامية ثراء. وتأثر رخاء العباسيين ببساطة الإسلام وأسلوب الأمويين فى العمارة، وحضارات بابل القديمة وما بين النهرين (العراق) والفارسية.

وكون العباسيون طرازهم المعمارى الخاص من القباب وطوروا المنارات الإسلامية والأموية. وللطراز العباسى أيضا شكل فريد من الأعمدة والدعامات وزخارف ما بين الدعامات على شكل قباب فى المساجد الكبيرة. وأفضل الأمثلة للطراز العباسى فى المساجد المسجد الجامع فى سامراء بالعراق، وجامع أحمد بن طولون فى مصر، وبنى جامع ابن طولون عام ٢٥٦ هجريا ٨٧٨ ميلاديا أثناء حكم أحمد بن طولون والذى عين حاكما عباسيا على مصر ثم أعلن قيام الدولة الطولونية فى مصر عند بداية ضعف الدولة العباسية. وقد ظهر فى العصر العباسى

إضافة «زيادة» لعمارة الجامع وهى عبارة عن سور حول الجامع من ثلاث جهات، جاءت إلى مصر مع جامع أحمد بن طولون.

وبعد انتقال العاصمة الفاطمية إلى مصر، وتأسيس القاهرة، اختلف طراز العمارة اختلافا كبيرا. واختفى تأثير قبائل بربر شمال أفريقيا بمساجدهم المحلية القبلية ذات الأسلوب البسيط، وظهر تأثير المصريين الذين اعتادوا المساجد الكبيرة، الجوامع حيث يتحد مسلمو مناطق بأكملها ويلتقون للصلاة.

اعتاد المصريون أيضا إقامة المحافل الدينية والاجتماعية والأحداث الجماعية فى تلك المساجد، وكانوا يقومون بأعمالهم وتجارتهم فى أسواق كبيرة أنشئت خارج المساجد. وهكذا، بهذا الشكل اضطر الفاطميون إلى تغيير أسلوبهم فى المعمار.

فى العصر الفاطمى جاء شكل جديد للمساجد عبارة عن صحن أوسط مكشوف يلتف حوله من ثلاث جهات فقط ثلاثة أروقة أو ظلل من ثلاث جهات فقط، ظهر هذا فى الجامع الأزهر - ولكنه أكمل بعد ذلك - ولازال باقياً فى جامع عمرو بن العاص بدمياط وجامع زغلول برشيد.

بنى الفاطميون مساجد أكبر وكان أولها الجامع الأزهر ومسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الصالح طلائع. وجميع هذه المساجد توضح الجانب الاجتماعى الذى ميز المساجد الفاطمية، حيث كان الآلاف يحتفلون بالمولد النبوى، وليلة عاشوراء،وعيدى الفطر والأضحى، والأحداث المهمة الدينية و الاجتماعية والاقتصادية، خاصة أن العصر الفاطمى كان عصرا للرخاء الاجتماعى.

وبعد قرنين ونصف قرن من الحكم الفاطمى، سقطت الدولة الفاطمية وكان آخر وزراء الخلافة الفاطمية صلاح الدين الأيوبى الذى أسس الدولة الأيوبية من القاهرة ثم اتسعت لتشمل كل أنحاء مصر وبلاد الشام والحجاز. وكان هدف صلاح الدين الأول هو محاربة الصليبيين فى قلب العالم الإسلامى فلسطين التى كانت مقاطعة فاطمية ثم أيوبية، ومحل نزاع وحرب بين المسلمين والمسيحيين.

تأثر المساجد بالحروب

تأثر الطراز الأيوبى فى البناء بالحرب واستعداداتها، فمعظم المنشآت فى العصر الأيوبى كانت على درجة كبيرة من التحصين والاستعداد للحرب. وتجلى ثراء العصر الأيوبى فى ساحات الحرب وبناء القصور والقلاع الحصينة وجدران المدينة والتحصينات، وقام الحكام الأيوبيون بتجديد المنشآت الدينية وإعادة بناء المساجد والأضرحة التى دمرها الصليبيون.

ومن نماذج التحف المعمارية للعهد الأيوبى قلعة صلاح الدين فى القاهرة، وقلعة حلب، وقلعة الجبل فى القاهرة، والمدارس المنتشرة فى مصر والتى بنيت لنشر المذهب السنى فى الإسلام.

ولا يوجد بالقاهرة الآن أى جامع يرجع إلى العصر الأيوبى، كما أننا لم نعثر على أية كتابات أثرية أيوبية تفيد ترميم الأيوبيين أو صيانتهم لجامع عمرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون، وهما بالإضافة إلى

جامع الحاكم شمال القاهرة المساجد التى سمح الأيوبيون بإقامة خطبة الجمعة بها، بغرض التقليل من أهمية الأزهر الذى كان مركز الدعاية الفاطمية الشيعية.

بعد الأيوبيين جاء عهد المماليك الذين اشتركوا فى الجهاد ضد الحملات الصليبية على فلسطين التى أصبحت مقاطعة تابعة للمماليك بعد سقوط الدولة الأيوبية. لذلك تأثر الطراز المملوكى أيضا بالحرب وإن كان بدرجة أقل لأن أهداف الحرب كانت قد تحققت والقدس تحررت فى عهد صلاح الدين الأيوبى.

ازدهر فن العمارة الإسلامية فى عصر المماليك مرة أخرى بعد تكشف ظلام الحرب وبنيت الكثير من المساجد والمدارس والأضرحة. ظل هناك بعض تأثير الحروب على العمارة فى عصر المماليك لأن أوربا أرسلت حملات صليبية إلى مصر فبقيت المساجد والمدارس محصنة ومجهزة لمواجهة أى اعتداء أو حصار.

كان المماليك يعملون فى الجيش الأيوبى ولم تحق لهم الجنسية المصرية، فلما حكموا البلاد أعطوا أنفسهم حق المستوى الأرفع من الناس فنجد اختلافا كبيرا بين المنشآت سواء دينية أو دنيوية التى أنشئت للعامة وتلك التى أنشئت للمماليك فكانت متميزة وفنية. وتميز عصر المماليك بالثراء فى فنون الديكور وأعمال المعادن والخشب والفسيفساء خاصة فى عمل المنابر والثريات.

بعد الخلافة العباسية، كانت الدولة العثمانية أول خلافة إسلامية اتحدت فى ظلها معظم المقاطعات الإسلامية من أقصى المغرب إلى الشرق

الأوسط. والعثمانيون هم أتراك من أصل سلجقوى من وسط آسيا. بعد استقرارهم فى آسيا الصغرى احتفظ الأتراك بالقسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية إثر سقوطها فى أيدى المسلمين، وأطلقوا عليها اسم إسلامبول أى «مركز الإسلام» فى اللغة التركية القديمة، وتعرف الآن باسم إسطنبول.

تأثر المساجد بالكنائس

أنشأ العثمانيون حضارة غنية ثقافيا وعلميا ودينيا، وكانوا امتدادا لبلاد السلاجقة فى العراق وكردستان. لذا تأثرت العمارة العثمانية بالسلاجقة حتى تطابقت القباب والمنارات فى الطرازين العثمانى والسلجوقى، ولكن العمارة العثمانية كانت أكثر سحرا وثراء لتنوع المصادر وكان الاختلاف فى الشكل الداخلى للمساجد.

كان العثمانيون يتوغلون فى مناطق أوربا الغنية وفى تلك الأثناء تبنوا بعض الفنون المسيحية المختلفة وكان أهم هذه الفنون فن زخرفة الأسقف والقباب من الداخل فى المساجد حتى إنه يمكننا رؤية التشابه الواضح بين مساجد العثمانيين والكنائس والكاتدرائيات فى أوربا المسيحية.

كان العثمانيون قد وصلوا إلى بلاد البلقان وهناك أقاموا مساجد أقل زخرفة من الداخل ومشابهة لمساجد السلاجقة القديمة، بها منارة واحدة وتتوسطها قبة واحدة كبيرة بلا زخارف داخلية. وبرع

العثمانيون فى الأعمال الخشبية والصناعات المعدنية وصناعة السجاد، وظهرت براعتهم وموهبتهم فى الأعمال الخشبية فى منابر المساجد التركية الرائعة. ومن أفضل الأمثلة للمساجد العثمانية فى تركيا مسجد السلطان أحمد ومسجد السليمانية.

وظهر نموذج جديد للمساجد جاء من وسط آسيا (من البلاد الباردة) وانتشر فى مصر بعد أن أصبحت تحت الحكم العثمانى، ويتكون هذا الطراز من مصلى عبارة عن ثلاثة أواوين يتوسطها قاعة (صحن مغطى) يعلوها قبة، وحرم عبارة عن صحن مكشوف يلتف حوله من أربعة جهات رواق واحد، ويعتبر جامع سليمان باشا بقلعة الجبل بالقاهرة هو المثل الواضح له. وتطور هذا النموذج فى القرن الـ ١٩م حيث أصبح المصلى فى جامع محمد على بالقلعة عبارة عن مربع يتوسطه أربعة دعامات تحمل قبة مرتكزة على أربعة أنصاف قباب.

العمائر الدينية

كانت أكثر المبانى شيوعا فى العمارة الإسلامية المدرسة والضريح والخانكة والسبيل والخان والسوق والحمام والقصر. وكان كل سلطان فى البلاد الإسلامية ينشئ مجمعا كبيرا يحمل اسمه ويحوى الخانكة والمدرسة والمسجد والسبيل، وأحيانا كان السلطان يدفن فى هذا المجمع.

ومن أبرز العمائر الدينية المرتبطة بالحضارة الإسلامية وظهرت فى مصر بشكل كبير عمارة المدرسة والخانقاة. فكان نظام التعليم فى

العصور الإسلامية مرتبط بالمسجد الجامع حتى القرن الـ ٥هـ / ١١م، حيث قامت الدول المستقلة عن الدولة العباسية فى وسط آسيا ومنها دولة السلاجقة التى استولت على مناطق إيران والعراق والأناضول، وأرادت محاربة المذهب الشيعى والقضاء عليه ونشر مذاهب أهل السنة، وبنيت المدرسة المستنصرية بمدينة بغداد كأول مدرسة مختصة بالتعليم فقط فى العالم الإسلامى على النظام الذى أخذت كل المدارس شكله بعد ذلك، وكانت مكونة من صحن أوسط مكشوف يتعامد عليه أربعة أواوين مخصصة لأصحاب المذاهب السنية الأربعة، ويلتف حولها مساكن لطلبة العلم والمدرسين ومكان للمكتبة وملحقات أخرى.

نشأ فى هذا العصر أيضا الخانقاة - مكونة من «خان» بمعنى بيت، و «آقا» بمعنى أستاذ بالفارسية، أى بيت الأستاذ- وخصص هذا المبنى لسكن المتصوفة الذين ينقطعون فيه للعبادة، وقد نشأ هذا النظام لمحاربة المذهب الشيعى أيضا، لأن هذا المذهب انتشر فى العالم الإسلامى عن طريق المتصوفة -الدعاة- المتجولين بين البلدان، وأخذ هذا المبنى نفس شكل مبنى المدرسة، وخير مثال لها خانقاة السلطان بيبرس الجاشنكير بمدينة القاهرة.

وقد بدأ انتشار نظام المدارس بمصر منذ بداية الدولة الأيوبية واستخدم فى البعض منها بيوت الفاطميين، كبيت الوزير المأمون البطائحى فى المدرسة السيوفية (جامع الشيخ مطهر الآن بشارع المعز لدين الله بالصاغة)، فكان تخطيط المدرسة فى هذا الوقت مكون من

إيوانـين، حيث اسـتعملت قاعة البيت المكونة مـن إيوانين متعامدين علـى صحن فى التدريس لمذهبين، وهنا مثال باقٍ لذلك هو دار الحديث الكاملية التى بناها الملك الكامل الأيوبى.

ثم أراد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بعد ذلك استخدام مدرسته لتدريس المذاهب الأربعة، فبنى مدرسته من جزءين كل جزء مكون من إيوانين متعامدين على صحن وفى الضلعين الآخرين توجد حجرات للطلاب والموظفين، ويجمع الجزءين واجهة واحدة يتوسطها المدخل الرئيسى تعلوه مئذنة، يؤدى إلى ممر يفصل بين الجزءين، والمتبقى منهما الآن جزء واحد فقط مع الواجهة، وفى العصر المملوكى بنى السلطان الظاهر بيبرس مدرسة مكونة من أربعة أواوين متعامدة على صحن أوسط مكشوف، ولكنها هدمت ولم يتبقى منها سوى أجزاء بسيطة، ثم وجدنا بعد ذلك أقدم مثال باق لمدرسة مكونة من أربعة أواوين متعامدة على صحن فى مدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بشارع المعز لدين الله.

جاء بعد ذلك السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون فى منتصف القرن ٨هـ / ١٤م فبنى مدرسته على نظام جديد، لم يختلف كثيرا عن نظام المدرسة ذات الأربعة أواوين المتعامدة على صحن أوسط، ولكنه استخدم هذا التخطيط كمسجد جامع وأضاف فى إيوان القبلة منبر من الرخام، ثم فتح فى أركان الصحن المكشوف بين الأربعة أواوين الرئيسية أربعة أبواب يؤدى كل منها إلى ممر يؤدى إلى صحن مكشوف

يفتح عليه إيوان لتدريس أحد المذاهب، وحول الصحن حجرات للطلاب والموظفين من عدة طوابق.

وقد ألحق بالمدارس - فى الغالب - بداية من مدرسة السلطان الصالح نجم الدين أيوب قبة ليدفن بها صاحب المدرسة، وبقى الحال على ذلك حتى نهاية العصر المملوكى، لكنه أخذ عدة أشكال كقبة السلطان حسن التى بنيت خلف إيوان القبلة على طراز جاء من وسط آسيا.

وقد تطورت المدارس بعد ذلك طوال العصر المملوكى، وبدأ تخطيطها يرجع مرة أخرى إلى إيوانين فقط، كما غطى الصحن المكشوف بين الإيوانين بسقف خشبى أعلى من سقف باقى المدرسة وكان أقدم مثال لذلك المدرسة الجوهرية الملاصقة للجامع الأزهر، وألحق بالمدارس أيضا الأسبلة والكتاتيب، كما أخذت تقوم بوظيفة الخانقاة والمسجد الجامع فى غير أوقات التدريس كمجموعة السلطان قايتباى، وفى المقابل اعتنى المماليك بزخارف الواجهات والمآذن والقباب بالزخارف الهندسية والنباتية المنقوشة على الحجر.

□□□

المبحث الثانى

مساجد القاهرة

جامع عمرو بن العاص

فتح العرب المسلمون مصر على يد عمرو بن العاص عام ٢١ هجرية – ٦٤٢ ميلادية، وأسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط وأنشأ بها مسجدا جامعا سمى فيما بعد باسمه، حيث كان يطلق عليه وقت إنشائه مسجد الفتح نسبة لفتح مصر، والمسجد العتيق أى القديم لكونه أول مسجد أسس فى مصر وأفريقيا كلها، كما أطلق عليه الأهالى والمؤرخون فى مؤلفاتهم فى العصور التالية اسم تاج الجوامع تأكيدا لمكانته عند المسلمين.

يقع جامع عمرو بن العاص شرق النيل بمنطقة مصر القديمة، وكان هذا المسجد غاية فى البساطة، فقد بلغت مساحته ٣٠ فى ٥٠ ذراعا – والذراع فى المقاييس القديمة من ٤٠ إلى ٥٠ سنتيمتر – وبنيت حوائط المسجد بالطوب الطينى المعروف باسم الطوب اللبن، وفرشت أرضه بالحصى وصنع سقفه من جريد النخيل وأقيمت أعمدته من جذوع النخل ولم تغفل عنه يد الأقدار فبدلت فيه وغيرت فى فترات متعاقبة فلم تبق من معالمه الأولى سوى المكان الذى شيد عليه وقد احتفظ لنا

التاريخ بتفاصيل فى أقوال المؤرخين عما طرأ عليه من تجديدات منذ إنشائه إلى الآن.

فى العصور المتعاقبة على المسجد طرأت العديد من التجديدات والتوسعات، وانتهى ذلك كله باتساع مساحته وارتفاع سقوفه بعد أن استبدلت بجذوع النخل عمد من الرخام وزينت جدرانه وزاد عدد أبوابه. وتوالت الإصلاحات والتوسعات بعد ذلك على يد من حكموا مصر.

ضريح ومسجد السيدة زينب

هو أحد أكبر وأشهر مساجد القاهرة وينسب إلى السيدة زينب بنت على بن أبى طالب حفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم.

يتوسط المسجد والضريح حى السيدة زينب بالقاهرة ويعرف الميدان المقابل للمسجد أيضا بميدان السيدة زينب. وكان هذا الحى يعرف سابقاً باسم (قنطرة السباع) نسبة إلى نقش السباع على قنطرة كانت موجودة وقتئذ على الخليج المصرى الذى كان يخرج من النيل عند المنطقة المعروفة حاليا باسم فم الخليج ويمر بهذا الشارع. وكانت السباع شارة الظاهر بيبرس الذى أقام تلك القنطرة، وفى عام ١٢١٥ هجرى، تم رَدمُ الجزء الأوسط من الخليج، وبردمه اختفت القناطر، ومع الردم تم توسيع الميدان.

ويعتبر الحى الذى يقع فيه المشهد من أشهر الأحياء الشعبية بالقاهرة حيث يكتظ بالمقاهى ومطاعم الأكلات الشعبية واعتاد أهل

القاهرة خصوصا فى رمضان الذهاب إلى مقاهى ومطاعم هذا الحى الشعبى القديم.

وتبلغ مساحة المسجد وملحقاته حاليًا حوالى سبعة آلاف متر مربع، وتشرف واجهته الرئيسية على ميدان السيدة زينب. وبهذه الواجهة ثلاثة أبواب تؤدى إلى داخل المسجد مباشرة، وقد زُيّنت تلك الأبواب من كلا جانبيها وفى مستوى قامة الإنسان ونظره بآيات من القرآن الكريم منقوشة على الحجر بخط الثلث الجميل، كما زُيّن أعلى الأبواب بأبيات من الشعر.

المشهور أن المشهد مبنى فوق قبر السيدة زينب بنت على بن أبى طالب وأخت الحسن والحسين حيث يروى بعض المؤرخين أن زينب رحلت إلى مصر بعد معركة كربلاء ببضعة أشهر واستقرت بها ٩ أشهر ثم ماتت ودفنت حيث المشهد الآن.

ويحتل المشهد مكانة كبيرة فى قلوب المصريين ويعتبر الكثيرون خصوصا من سكان الأقاليم البعيدة عن القاهرة أن زيارته شرف وبركة يدعون الله أن ينالونها. ويعتبر المسجد مركز من مراكز الطرق الصوفية ومريديها. وفى كل عام فى شهر رجب يقام مولد السيدة زينب حيث يتوافد آلاف من البشر على ميدان السيدة زينب وتقام احتفالات ويتغير شكل المنطقة تماما لبضعة أيام.

مسجد ابن طولون

يعد جامع أحمد بن طولون نموذجًا فريدًا فى تاريخ العمارة الإسلامية، ودرة فى تاريخ المساجد الأثرية، ودليلًا قويا على ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية فى العصر الطولونى.

وأحمد بن طولون هو أمير مصر ومؤسس الدولة الطولونية فى مصر والشام فى القرن الثالث الهجرى، وتعتبر شخصية أحمد بن طولون من الشخصيات المهمة فى تاريخ مصر الإسلامى، إذ تتمثل فيها النقلة التى انتقلتها مصر من ولاية تابعة للخلافة العباسية إلى دولة ذات استقلال ذاتى.

ويعد جامع أحمد بن طولون ثالثَ الجوامع بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، وجامع العسكر الذى زال بزوال مدينة العسكر التى كانت تشغل حىّ زين العابدين «المدبح حاليًا».

ويعد جامع أحمد بن طولون هو المسجد الوحيد الباقى فى مصر، الذى لم تتغير معالِمه، وقد تغيرت معظم معالم مسجد عمرو بن العاص، وكذلك جامع الأزهر الشريف بمرور العصور. ويتميز هذا الجامع بزخارفه الإسلامية البديعة التى تَجعله أحد النماذج النادرة للفن الإسلامى والعمارة الإسلامية.

يعتبر جامع أحمد بن طولون أقدم مسجد باق على حالته الأصلية بشكل كامل مع بعض الإضافات المملوكية، على عكس جامع عمرو بن العاص الذى محت التجديدات والتوسعات معالمه الأصلية تماما، وتمتد عمارة الجامع على مساحة ستة أفدنة ونصف.

ومن أبرز معالم هذا الجامع المئذنة التى تسترعى انتباه الزائرين بمظهرها الفريد، وهى تتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها بنية أسطوانية يلتف حولها من الخارج سلم دائرى لولبى، ويعلو الساق الأسطوانية للمئذنة طابقان مثمنان تتوسطهما شرفة بارزة، وهذان الطابقان المثمنان من الطراز المعمارى الشائع فى عصر المماليك. وهذه المئذنة لا يوجد مثيل لها فى مآذن القاهرة.

الجامع الأزهر

يعد الجامع الأزهر من أهم المساجد فى مصر وأشهرها فى العالم الإسلامى، فهو بحق جامع وجامعة للعلوم الإسلامية، بدأ حاملا راية المذهب الشيعى فى العصر الفاطمى ثم تحول فى العصر المملوكى إلى منارة لتدريس المذهب السنى. فكان جامعة إسلامية منذ أكثر من ألف سنة.

يعود إنشاء الجامع الأزهر إلى العهد الفاطمى، حيث وضع جوهر الصقلى حجر الأساس، بأمر من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، فى ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧١م)، وافتتح للصلاة لأول مرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦١هـ. فهو بذلك أول جامع أنشئ فى مدينة القاهرة المدينة التى اكتسبت لقب مدينة الألف مئذنة، وهو أقدم أثر فاطمى قائم بمصر.

وسمى بالجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها والتى نسب الفاطميون أنفسهم ومسمى دولتهم إليها. وقد كان الغرض

من إنشائه فى بداية الأمر الدعوة إلى المذهب الشيعى، ثم لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم مختلف العلوم الدينية والعقلية. ويرجع الفضل فى إسباغ الصفة التعليمية على الأزهر إلى الوزير يعقوب ابن كلس، حيث أشار على الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٨هـ بتحويله إلى معهد للدراسة، بعد أن كان مقصورا على العبادات الدينية، ونشر الدعوة الشيعية.

ويعتبر الجامع الأزهر ثانى أقدم جامعة قائمة بشكل مستمر فى العالم الإسلامى بعد جامعة القرويين بتونس. وفى العصر الحديث تعد جامعة الأزهر أول جامعة قائمة فى العالم الإسلامى لتدريس المذهب السنى والشريعة الإسلامية والفقه والسيرة النبوية.

فى العصر الأيوبى مر الجامع بمرحلة طويلة من الإهمال، حيث اعتبره صلاح الدين الأيوبى والسلاطين الأيوبيون السنيون الذى أتو من بعده مؤسسة لنشر المذهب الشيعى الإسماعيلى، فتجنبوا الاهتمام بالأزهر والصلاة به على مدى تاريخ حكمهم ، وقد تمت إزالة مكانته باعتباره مسجدا شيعيا وحرمان الطلبة والمدرسين فى مدرسة الجامع من الرواتب.

وفى عصر سلاطين المماليك، بلغ الاهتمام بالجامع الأزهر ذروته، فتم تحويله إلى مدرسة للمذهب السنى وصارت تلقى به الدروس، وعكست عمارة الجامع مدى اهتمام سلاطين المماليك به، وكان ذلك بمنزلة العصر الذهبى للأزهر. إذ قام العديد من السلاطين بأعمال توسعة وتجديدات للجامع.

جامع الحاكم بأمر الله

بُنى جامع الحاكم بأمر الله عام ٣٨٠هـ فى عهد العزيز بالله الفاطمى الذى بدأ فى سنة ٣٧٩هـ، وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣هـ فصار الجامع يعرف باسمه.

ويعد ثانى أكبر الجوامع الأثرية الباقية، فمساحته أقل من مساحة جامع عمرو بن العاص. توجد فى طرفى الواجهة الشمالية الغربية للجامع مئذنتان لهما قاعدتان هرميتا الشكل، وبين المئذنتين يوجد مدخل الجامع الأثرى وهو أول مدخل بارز بنى فى جوامع القاهرة، ويؤدى المدخل إلى فناء الجامع الذى تحيطه ظلات من جميع الجهات، أكبرها ظلة القبلة.

وقد تعرض الجامع لفترات من الإهمال فتوالى تهدم أجزاء منه خلال العصور المملوكية والعثمانية، فقد تأثر الجامع بالزلزال الذى حدث سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م) فتهدمت كثير من العقود والأكتاف الحاملة لها. وسقط السقف. وهوت قمتا المئذنتين. وكان السلطان الناصر محمد فى ولايته الثانية فأمر أحد أمرائه وهو بيبرس الجاشنكير فور وقوع الزلزال بإصلاح الجامع وإعادة بناء ما تهدم منه وتدعيم المئذنتين، فتم ذلك سنة ١٣٠٣م. كما جدده السلطان حسن سنة ١٣٥٩م.

وكانت أهم أعمال الإصلاح والتجديد التى عملت بجامع الحاكم هى التى قام بها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف سنة ١٨٠٨،فقد جدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقى وجعلها مسجدا للصلاة،وكسا القبلة

بالرخام ووضع بجوارها منبرا. وفى سنة ١٨٨١م تم إنشاء متحف الفن الإسلامى (دار الآثار العربية) فى الرواق الشرقى لجامع الحاكم. وفى سنة ١٨٨٣م تم بناء مبنى من دورين فى صحن الجامع ليكون مقرا للمتحف، ثم تحول المبنى إلى مدرسة السلحدار الابتدائية بعد نقل المتحف إلى مبناه الحالى فى باب الخلق سنة ١٩٠٣م.

وقد تعرض جامع الحاكم للعديد من الكوارث، منها أنه لما استولى الصليبيون على القاهرة سنة ١١٦٧م حولوا جانبا منه إلى كنيسة. وفى زمن الحملة الفرنسية تحول إلى مقر لإحدى حاميات الحملة. وفى أوائل القرن ١٩ نزل فيه بعض المهاجرين الشوام وأقاموا فيه مناسج للحرير ومصانع للزجاج، ثم حولته وزارة الأوقاف إلى مخزن. ثم تولته لجنة حفظ الآثار العربية.

كما تحول الجامع فى فترات تالية إلى مخازن حتى عهد الرئيس محمد أنور السادات، إذ طلبت طائفة الشيعة البهرة تجديده بالجهود الذاتية باعتبار الجامع مكان مقدس بالنسبة إليهم. ففى معتقداتهم أن الحاكم بأمر الله نفسه شخصية مقدسة، وتم ذلك، ومنذ ذلك الحين يقوم الشيعة البهرة الذين هاجروا إلى مصر واستقروا بها كتجار – وخصوصا فى منطقة القاهرة الفاطمية والجمالية وما حولها – برعاية الجامع وهو مفتوح لجميع الطوائف للصلاة فيه.

جامع الإمام الحسين بن على

يقع جامع الحسين فى القاهرة الفاطمية، مواجها للجامع الأزهر، ويعرف الحى الذى يقع فيه باسم حى الحسين، ويجاوره منطقة تراثية وسياحية شهيرة هى خان الخليلى.

بُنى الجامع فى العصر الفاطمى سنة ٥٤٩ هجرية / ١١٥٤ ميلادية تحت إشراف الوزير الصالح طلائع، ويضم المسجد ثلاثة أبواب مبنية بالرخام الأبيض تطل على خان الخليلى، وبابًا آخر بجوار القبة ويعرف بالباب الأخضر.

سُمى المسجد بهذا الاسم نظرًا لاعتقاد البعض بوجود رأس الإمام الحسين مدفونًا به، إذ تحكى بعض الروايات أنه مع بداية الحروب الصليبية خاف حاكم مصر الخليفة الفاطمى على الرأس الشريف من الأذى الذى قد يلحق به فى مكانه الأول فى مدينة عسقلان بفلسطين، فأرسل يطلب قدوم الرأس إلى مصر وحُمل الرأس الشريف إلى مصر ودفن فى مكانه الحالى وأقيم المسجد عليه.

يتكون الجامع من ظلة واحدة للقبلة من خمسة أروقة، حمل سقفها على أعمدة رخامية، كما زين محرابه بقطع صغيرة من القيشانى الملون بدلا من الرخام و هو مصنوع عام ١٣٠٣هـ. و بجانبه منبر من الخشب يجاوره بابان يؤديان إلى القبة التى تضم القبر المدفون به رأس الإمام الحسين، فضلا عن باب ثالث يؤدى إلى حجرة الآثار النبوية التى بنيت عام ١٣١١هـ.

وللمسجد مئذنة بنيت فى الركن الغربى على نمط المآذن العثمانية فهى أسطوانية الشكل و لها دورتان و تنتهى بشكل مخروطى.

الجامع الأقمر

هو أحد مساجد القاهرة الفاطمية، يوجد هذا الجامع فى شارع النحاسين وقد بناه الوزير المأمون بن البطايُحى بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله أبى على منصور سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) وهو أول جامع فى القاهرة تحتوى واجهته على تصميم هندسى خاص.

يروى المقريزى أن المسجد بنى فى مكان أحد الأديرة التى كانت تسمى بئر العظمة، لأنها كانت تحوى عظام بعض شهداء الأقباط، وسمى المسجد بهذا الاسم نظرًا للون حجارته البيضاء التى تشبه لون القمر.

وهو أول جامع أيضا فيه الواجهة موازية لخط تنظيم الشارع بدل أن تكون موازية للصحن ذلك لكى تصير القبلة متخذة وضعها الصحيح، ولهذا نجد أن داخل الجامع منحرف بالنسبة للواجهة.

وقد أجريت أعمال تجديد تالية على الجامع قام بها الأمير سليمان أغا السلحدار سنة ١٨٢١م فى أيام محمد على باشا. كما قامت لجنة حفظ الآثار العربية بترميم الجامع وتجديده والحفاظ على زخارفه سنة ١٩٢٨م. كما قام المجلس الأعلى للآثار بتجديده وإزالة المبانى التى كانت أمام واجهته بحيث ظهرت زخارف الواجهة كاملة. والأقمر

من الجوامع المعلقة فعندما بنى كانت تحته حوانيت، ويعد من مفاخر العمارة الإسلامية الفاطمية.

جامع الصالح طلائع

يعتبر من الجوامع الكبيرة التى أنشئت فى العصر الفاطمى، إذ تبلغ مساحته (١٥٢٢) مترا مربعا.

والجامع مستطيل الشكل يتوسطه فناء كبير مربع مساحته ٤٥٤,٥٤ مترا مربعا به صهريج كان يملأ بالماء وقت فيضان النيل من الخليج عند ميدان باب الخلق، القريب منه أمام مديرية أمن القاهرة ومتحف الفن الإسلامى حاليا.

ويحيط بالفناء أروقة من جميع الجهات، رواق واحد من الجهات الثلاث الشمالية والجنوبية والغربية. أما ظلة القبلة فتحتوى على ثلاثة أروقة عقودها ذات زوايا منكسرة حليت حافاتها من الداخل والخارج بكتابات قرآنية بالخط الكوفى المزهر الجميل تشبه تلك الموجودة بالجامع الأزهر والأقمر.

وفى أسفل جميع الواجهات عدا الواجهة الشرقية توجد محلات – أو كما كانت تعرف قديما حوانيت – خصص دخلها للإنفاق على المسجد.

جامع الظاهر بيبرس

يقع جامع الظاهر بيبرس فى حى الظاهر بالقاهرة، الذى صار يعرف باسم منشئ الجامع الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هجرية، ويعتبر من أكبر جوامع القاهرة حيث تبلغ مساحته ١٠٣ متر عرض × ١٠٦ متر، ولم يبق منه سوى حوائطه الخارجية وبعض عقود رواق القبلة.

كما أبقى الزمن على كثير من تفاصيله الزخرفية سواء الجصية منها أو المحفورة فى الحجر. وتعطينا هذه البقايا فكرة صحيحة عما كان عليه الجامع عند إنشائه من روعة وجلال. وتخطيطه على نسق غيره من الجوامع المتقدمة

ويتكون الجامع من فناء أوسط مكشوف يحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، وكانت أسقفه محمولة بواسطة عقود تعلو الأعمدة الرخامية. كما تعلو المحراب قبة محمولة على أكتاف مربعة بأركانها أعمدة مستديرة. أما واجهات الجامع الأربع فمبنية من الحجر وتعلوها فتحات لشبابيك معقودة ومتوجة بشرفات مسننة.

جامع المؤيد شيخ

يقع جامع المؤيد شيخ بشارع المعز لدين الله ملاصقا لباب زويلة المعروف تاريخيا باسم (بوابة المتولى). المحمودى الجركسى الأصل، وهو أحد مماليك الأمير برقوق قبل أن يتحقق له ملك مصر، وكان ذلك ابتداء من عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م وانتهى فى عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م.

وترجع قصة بناء الجامع إلى أن «المؤيد» قد حُبس فى موقع الجامع وكان خزانة شمال مصر التى كان يسجن فيها المجرمون، وذلك أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية، وحدث أن قاسى «المؤيد» فى ليلة من البق والبراغيث، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجل، ومدرسة لأهل العلم، وقد أوفى بنذره.

وفى رواية أخرى أن سبب سجن المؤيد هو وصول وشاية للسلطان برقوق بأن المؤيد يريد أن يقوم بانقلاب على الحكم فأمر بسجنه فى هذا المكان.

ويعتبر الجامع تحفة معمارية تدل على عظمة عمليات التشييد فى العصر المملوكى.حيث يضم مسجدا وضريحا لدفن المؤيد وضريحا لابنه إبراهيم الذى مات صبيا، بالإضافة إلى سبيل مياه لسقية المارة والمصلين.

ويعتبر الجامع من الجوامع المعلقة وكان يستغل أسفل الجامع كحواصل ينفق ريعها على الجامع بالكامل.

ويغطى رواق القبلة بالجامع سقف خشبى يضم زخارف نباتية وشريط كتابى عليه آيات قرآنية بالخط الثلثى المملوكى تحث على إقامة الصلاة.

وكان لجامع المؤيد شيخ ثلاث مآذن، اثنتان فوق باب زويلة واللتان تشكلان الآن أبرز معالم البوابة، ومئذنة ثالثة مختلفة الشكل قرب المدخل الغربى ولكنها اختفت فى القرن التاسع عشر الميلادى.

مسجد الملكة صفية

يقع هذا المسجد بمنطقة الفداوية بالقرب من شارع محمد على بالقلعة، أنشأه أحد مماليك الملكة صفية زوجة السلطان مراد الثالث العثمانى ووالدة السلطان محمد الثالث، وسمى باسمها وهو مبنى على طرز المساجد العثمانية.

يتكون من فناء مكشوف تحيط به أربعة أروقة تغطيها قباب محمولة على عقود ترتكز على أعمدة رخامية، وبالجانب الشرقى لهذا الفناء ثلاثة أبواب، أهمها الأوسط حيث ثبت فوقه لوحة تذكارية كتب بها أن هذا الجامع أنشأته والدة السلطان محمد خان، على يد إسماعيل أغا ناظر الوقف سنة ١٠١٩ هجرية.

ومسجد الملكة صفية من أهم الجوامع العثمانية فى القاهرة، وهو ثالث جامع بمصر وضع تخطيطه على مثال الجوامع العثمانية فى إستانبول وأولها جامع سليمان الخادم بالقلعة، وثانيها سنان باشا فى بولاق، ويليه جامع محمد أبو الذهب وأخيرا جامع محمد على بالقلعة. الجامع مرتفع عن مستوى الشارع حوالى أربعة أمتار وتخطيطه مستطيل ينقسم إلى قسمين، الشرقى مربع فى وسطه ستة أعمدة من الجرانيت تحمل عقودا حجرية تحمل فوقها قبة كبيرة وهى من أندر القباب العثمانية فى مصر ويبلغ ارتفاعها ١٧,٦م.

جامع محمد على

هو أكثر معالم القلعة شهرة حتى إن الكثيرين يعتقدون أن قلعة صلاح الدين الأيوبى هى قلعة محمد على باشا لشهرة هذا الجامع بها، كما يسمى أيضا جامع المرمر وهو نوع من أنواع الرخام النادر الذى كسى به. وقد ذكرت المصادر والمراجع المختلفة أنه ما إن أتم محمد على باشا إصلاح قلعة صلاح الدين الأيوبى وفرغ من بناء قصوره ودواوين المالية والجهادية وعموم المدارس ودار الضرب رأى أن يبنى جامعا كبيرا بالقلعة لأداء الفرائض وليكون به مدفنا يدفن به. فقد ظلت القلعة منذ أن أنشأها صلاح الدين الأيوبى مقرًا للحكم فى الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وفى عهد الولاة العثمانيين ثم فى عهد الأسرة العلوية.

بنى الجامع على الطراز العثمانى، على غرار مسجد أيا صوفيا بإسطنبول، بناه محمد على باشا بداخل قلعة صلاح الدين بالعاصمة المصرية؛ القاهرة، ما بين الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨م.

وقد ذكر باسكال كوست المعمارى الفرنسى فى مذكراته أن محمد على باشا طلب منه تصميم جامع بالقلعة سنة ١٨٢٠ م ولكن المشروع توقف ولم يشرع فى بناء الجامع إلا سنة ١٨٣٠م وفقا لتصميم مهندس معمارى أخر تركى هو المهندس «يوسف بوشناق» الذى وضع تصميمه على غرار جامع السلطان أحمد بالأستانة مع بعض التغييرات الطفيفة.

وكان الشروع فى إنشاء الجامع سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م واستمر العمل سائرا بلا انقطاع حتى توفى محمد على باشا سنة ١٢٦٥هـ /

١٨٤٨م ودفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل الجامع وقد بُنى هذا الجامع على أنقاض قصر الأبلق والإيوان الذى بناه الناصر محمد بن قلاوون والقاعة الأشرفية التى تنسب إلى الأشرف خليل بن قلاوون.

□□□

المبحث الثالث

الصوفية.. من الخانقاوات إلى التكايا

حفلت الحضارة الإسلامية فى القاهرة بالكثير من العمائر والمنشئات الدينية، ومن أبرزها عمارة الخانقاوات والتكايا التى أنشئت لإيواء المتعبدين والصوفية، وأضيف على وظيفتها فى عصور مختلفة إيواء الأرامل واليتامى والمسكين والصرف عليهم وإطعامهم.

واستمدت هذه العمائر مقومات وجودها وازدهارها من طابع الرحمة والصفاء النفسى والروحى الذى اتصفت به تعاليم الدين الإسلامى، فقد رأينا منشآت معمارية أقيمت لتتوافر فيها المياه للفقراء وعابرى السبيل والمسافرين مثل الأسبلة التى لم تظهر عبر التاريخ إلا فى المدن الإسلامية، ووصل الحد إلى إنشاء أحواض لسقاية الدواب والحيوانات وانتشارها على أبواب المدن الإسلامية وعلى طرق السفر والتجارة رحمة بحيوانات الركوب.

وتعد الخانقاوات من المنشآت الروحية التى استهدفت توفير الجو المناسب للعبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتحقيق الصفاء الروحى الذى يبعد الإنسان لساعات معدودة من الليل والنهار عن ماديات الحياة ومشاغلها.

والخانقاوات مفردها خانقاة، وكانت تسمى فى الدولة العثمانية التكايا، ومفردها تكية. وقد انتشرت هذه الخانقاوات فى الأقطار الإسلامية المختلفة، وبخاصة فى إيران ومصر والشام واليمن وأسيا الصغرى (تركيا) أما فى المغرب الإسلامى، فتعرف الخانقاوات هناك باسم الزوايا.

وتجمع عمارة الخانقاة بين عدة وظائف منها المدرسة والضريح والمسجد والسبيل وغيرها. وكانت الخانقاوات تخطط على غرار المدارس الدينية الإسلامية، أى أنها كانت تتكون من صحن أوسط تحيط به إيوانات وحجرات لسكن الصوفية أو طلاب العلم، والتى تتكون من عدة طوابق.

وقد أسهمت الخانقاوات فى النواحى التربوية والدينية والاجتماعية. وقد عرفت مصر الخانقاوات منذ العصر الأيوبى، وانتشرت انتشارا واسعا فى العصر المملوكى.

كان الصوفية هم أبرز سكان الخانقاوات، وهم جماعة من المتعبدين الزاهدين فى الدنيا، انقطعوا – للعبادة والعلم – عن شئون الدنيا وزينتها. وينسب البعض الصوفية إلى أهل الصفة المنقطعين للعبادة، وكانوا يصطفون فى نهاية مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، بينما يقول البعض إن التسمية أخذت من الصفاء الروحى، وكان أبرز مشايخ وأقطاب الصوفية الإمام الحسن البصرى وكان يعقد حلقات فى المسجد الجامع بالبصرة بالعراق، وهى جلسات تجمع الاهتمام بالفقه والتوحيد والعناية بالتربية الروحية للمتعبدين والطلاب.

تاريخ المتصوفة

استمر ظهور المتصوفة فى القرن الثانى الهجرى حيث ظهر بعض المغالين من المتصوفة الذين أعرضوا عن الدنيا وانقطعوا انقطاعا تاما للعبادة فقط. وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين أصبحت التصوف علم ومنهج وصار له أقطاب لهم كيان عقلى وروحى، وكونوا لأنفسهم جماعات أشبه ما تكون بالفرق ولكل فرقة قطبها وشيخها وأتباعها، ومن ثم صار لهم مكانة كبيرة عند الحكام لاهتمامهم بالعبادات والشئون الروحية الدينية فقط بعيدا عن السياسة، فكان الحكام يأنسون بمجالسهم ويستمعون إلى حلقات الذكر التى كانت تقام فى الخانقاوات والتكايا التى أولى السلاطين والحكام عناية خاصة بعمارتها والصرف عليها.

وكان المتصوفة يعيشون داخل الخانقاوات أو الزوايا وفق نظام دقيق فى المأكل والمبيت ومباشرة ضروب العبادة من صلاة وذكر وغير ذلك، وفى داخل الخانقاة عدد معين من الخلوات لكل متصوف خلوة يتعبد فيها عندما يخلو بنفسه فى غير أوقات صلاة الجماعة.

وكان لكل خانقاة أو زاوية شيخ يرأس المتصوفة فيها، روعى فيه أن يكون من الجماعة المتصوفة، ممن عُرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة.

كذلك كان لكل خانقاة حمام ومطبخ وخزانة للشراب والأدوية، كما عين لكل خانقاة حلاق لحلق الرؤوس، هذا فضلا عن طبيب وكحال، وبذلك يتوافر لأهل الخانقاة كل الضرورات التى تغنيهم عن العالم الخارجى.

ويعتبر القرن السادس الهجرى عصر انطلاق الصوفية لانتشارها بين أفراد الشعب وأصبح الصوفية موضع ثقتهم ولما تولى صلاح الدين حكم مصر قرر لهم أوقافا يصرف من ريعها على رواتبهم وطعامهم وملبسهم. ويذكر أن أول الخانقاوات فى مصر كانت «خانقاة سعيد السعداء» التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ، وعرفت باسم خانقاة الصالحية، وأوقف لها الأوقاف.

وكان العصر المملوكى هو العهد الذهبى لانتشار الخانقاوات، إذ كثر المتصوفة الراغبون فى العيش بالخانقاوات، فبنيت الكثير منها فى القاهرة فى منطقة صحراء المماليك المعروفة بقرافة القاهرة حاليا والجمالية والسيدة زينب، ومن أبرزها خانقاة السلطان الأشرف برسباى، وخانقاة السلطان الناصر فرج بن برقوق فى صحراء المماليك، وخانقاة بيبرس الجاشنكير فى شارع الجمالية، وخانقاة الجاولى فى شارع مراسينا فى حى السيدة زينب، وخانقاة وقبة شيخون فى شارع الصليبة.

هدية الحاكم للشعب

كان إنشاء أى خانقاة يعتبر هدية مملوكية للشعب ولفقراء الصوفية فكان الأمراء والسلاطين يقومون بوقفها وافتتاحها بأنفسهم فى احتفال مهيب، فقد ذكر «ابن بطوطة» أن أمراء مصر كانوا يتنافسون فى بناء الزوايا والخانقاوات فإذا تم بناء إحداها افتتحها السلطان فى حفل كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية.

أما التميز المعمارى فنجده يشتمل على الكثير من آيات التفوق كما يؤكد د. عاصم رزق فى كتابه «خانقاوات الصوفية فى مصر» حيث أظهر المعماريون تفوقهم فى تصميم المداخل والمخارج والمحاريب والنقش والكتابة، فلم يكن هناك فارق يذكر بين تخطيط المسجد والخانقاة.

وقد تطور الأمر وبدأ المسلمون يدرسون فى هذه الخانقاوات المذاهب الفقهية وكانت تختص كل خانقاة فى القرن الثامن الهجرى بمذهب، فقد كان فقه الإمام الشافعى يدرس فى الخانقاة الجاولية، والحنفى فى الخانقاة الجمالية، بينما درست المذاهب الأربعة فى الخانقاة الشيخونية.

وفى العصر العثمانى تغير الحال وهجرت هذه الخانقاوات وحلت مكانها التكايا، وتكاد التكية أن تكون مثل الخانقاة من حيث الهدف والغاية من إنشائها، إلا أن من سكنوها عرفوا فى العصر العثمانى باسم الدراويش، ولا فرق بين الخانقاة والتكية سوى أن الأولى عرفت فى العصر الأيوبى والعصر المملوكى والثانية عُرفت فى العهد العثمانى، فالتكية من المنشآت الدينية التى حلت محل الخانقاوات المملوكية فى العصر العثمانى، بحيث اختفى لفظ خانقاة من البلاد التى استولت عليها الدولة العثمانية.

والواقع أن التكية أخذت تؤدى الوظيفة نفسها التى كانت تقوم بها الخنقاوات، أى إنها خاصة بإقامة المنقطعين للعبادة من المتصوفة، كما أنها قامت خلال العصر العثمانى بدور آخر وهو تطبيب المرضى

وعلاجهم، وهو الدور الذى كانت تقوم به البيمارستانات – أى المستشفيات – فى العصر الأيوبى والمملوكى، فمع بداية العصر العثمانى أهمل أمر البيمارستانات وأضيفت مهمتها إلى التكايا.

ولقد تطور دور التكايا بعد ذلك، وأصبحت خاصة بإقامة العاطلين من العثمانيين المهاجرين من الدولة الأم والنازحين إلى الولايات الغنية مثل مصر والشام، ولهذا صحَّ إطلاق لفظ «التكية»، ومعناها مكان يسكنه الدراويش، وهم طائفة من الصوفية العثمانية مثل «المولوية والنقشبندية»، والأغراب وغالبا ممن ليس لهم مورد كسب.

وقد حددت لكل تكية أوقاف للصرف منها على المرتبات الشهرية، ولذا سمى محل إقامة الدراويش والتنابلة «تكية»، لأن أهلها متكئون أى معتمدون فى أرزاقهم على مرتباتهم من التكية، واستمر سلاطين آل عثمان وأمراء المماليك وكبار المصريين فى الإنفاق على التكايا وعلى سكانها.

وفيما يلى نماذج لأشهر الخانقاوات والتكايا:

خانقاة «بيبرس الجاشنكير»

تقع خانقاة بيبرس الجاشنكير فى شارع الجمالية بالقاهرة، وأنشأها السلطان بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٦هـ، ١٣٠٩م، قبل أن يتولى السلطة، وأنشأ بجانبها رباطاً كبيرا يتوصل إليه من داخلها، وألحق فيها قبة كبيرة، وأسكن فيها ٤٠ صوفيا، وبالرباط ١٠٠ جندى.

وكان يشغل موقع هذه الخانقاة قبل إنشائها دار الوزارة الفاطمية الكبرى التى أنشأها الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، وتتألف الخانقاة من فناء يطل عليه إيوانان كبيران معقودان، أحدهما إيوان القبلة، وفى الجانبين الآخرين خلاوى للصوفية، بعضها فوق بعض، ويتوسط إيوان القبلة محراب حجرى يتميز بالبساطة والخلو من الزخارف بما يتناسب مع طبيعة الخانقاة، ومدخل الخانقاة تعلوه المئذنة، ويجاور المدخل ضريح تعلوه القبة.

تعد خانقاة بيبرس الجاشنكير أقدم خانقاة لا تزال قائمة فى القاهرة ومنارتها ذات طراز فريد. وكان بالخانقاة مطبخ يوزع كل يوم اللحم والخبز والحلوى على الصوفية والفقراء المقيمين بها وكان القرآن يتلى فيها دون انقطاع عند الشباك الكبير وكان الحديث النبوى يدرس بالقبة. أغلق السلطان الناصر محمد الخانقاة وأزال اسم بيبرس من طرازها بعد القبض على بيبرس وقتله ثم أعيد فتحها بعد عشرين سنة من غلقها.

كان بيبرس الجاشنكير من أصل شركسى ومن مماليك السلطان المنصور قلاوون. تدرج فى المكانة فأصبح أميرا ثم جاشنكيرا وبعد وفاة قلاوون خدم كل من ابنيه السلطانين الأشرف خليل والناصر محمد. فى فترة حكم الناصر محمد الثانية (١٢٩٩ - ١٣٠٩م) تقلد منصب الأستادار. فى عام ١٣٠٢م لعب دورا فى إخماد تمرد وقع فى صعيد مصر وفى عام ١٣٠٣م كان أحد قواد الجيش المصرى الذى هزم المغول فى معركة مرج الصُفر.

مدرسة وخانقاة الناصر فرج بن برقوق

بدأ فى بناء هذه الخانقاة الملك برقوق، سنة ٨٠١هـ - ١٣٩٨ / ٩٩، وانتهى منها سنة ٨١٣هـ - ١٤١٠ / ١١، فعرفت باسم ابنه، وهى بناء ضخم يضم مدفنين ومدرسة ومسجد وخانقاة. وبنيت فى قرافة المماليك بالعباسية - طريق صلاح سالم حاليا -. ووضع تصميمها ونفذ على أن يخدم أغراضا مهمة متعددة، فهى مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية ومسجد جامع فسيح الأرجاء وتربة لآل برقوق، وخانقاة فخمة، استغرق بناؤها حوالى الاثنتى عشرة سنة. وبلغ من اهتمام الناصر فرج بها أنه جعل ما حولها مدينة أخرى عامرة بأسواقها وخاناتها وحماماتها ولكنه مات قبل أن يدرك كل غايته.

ففى طرفى هذه المجموعة البحرى والقبلى سبيلان يعلوهما مكتبان أنيقان لتحفيظ الأبناء اليتامى القرآن. ومما يزيد الواجهة الغربية جمالاً مئذنتان تقوم إحداهما على يمين المكتب البحرى والأخرى على يسار المكتب القبلى. أما الواجهة الشرقية فتتكون من قبتين شامختين متماثلتين رسما وحجما تعلو المحراب. وقد حلّيت أسطح القباب بنقوش بارزة متعرجة على شكل دالات نقشت فى الحجر.

والتخطيط العام للخانقاة عبارة عن مربع يتوسطه فناء محاط بأربعة أروقة؛ أكبرها رواق اتجاه قبلة الصلاة. وتعلو أسقف الأروقة قباب حجرية نصف كروية، ويضم رواق اتجاه قبلة الصلاة مدفنين لكل منهما قبة. وتضم إحدى غرفتى الدفن جثمانى السلطان برقوق وولده

السلطان الناصر فرج بن برقوق، بينما تضم غرفة الدفن الأخرى رفات ثلاث نساء من أسرة الظاهر.

التكية المولوية

تقع التكية المولوية فى شارع السيوفية بحى الحلمية بمدينة القاهرة القديمة بالقرب من حى السيدة زينب وحى القلعة، وتزخر هذه المنطقة بنماذج رائعة من العمارة الإسلامية حيث المساجد التاريخية والأسبلة والكتاتيب من مختلف العصور.

ويرجع تاريخ المكان لسنة ٧٢١ هجرية، إذا كان يشغل موقع التكية المولوية مدرسة «سُنقر السعدى»، وهو أحد أقوى أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون، فبنى المدرسة وألحق بها قبة ليدفن تحتها ، كما بنى مدفنا بجواره للشيخ الصوفى «سيدى حسن صدفة» ويشاء القدر أن يقوم أحد أتباع «سنقر» ويُدعى «قيسون» بالوشاية به لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فيطرده من مصر إلى طرابلس بالشام ويموت هناك، أما «سيدى حسن صدقة» فكان بمثابة الشقيق الروحى فى التصوف للقطب الصوفى الكبير سيدى «أحمد البدوى» وضريحه فى طنطا بوسط الدلتا.

وظلت المدرسة والخانقاة التى أقامها سنقر السعدى مستخدمة لإيواء الصوفية وطلاب العلم والأرامل حتى حضرت «طائفة المولوية» لمصر فى العصر العثمانى، وهم الدراويش أتباع مولانا جلال الدين الرومى، فسكنوا بالمكان وأقاموا احتفالاتهم بها.

ولا زالت العمارة الأثرية للتكية المولوية مكتملة الأركان، إذ بها قاعة الرقص المعروفة باسم «السمعخانة» والضريح وحجرات إقامة الدراويش، كما أن بها أعمدة وصورا وخطوطا ترمز للطريقة الصوفية المولوية، وهى طريقة فلسفية روحية صوفية أسسها «جلال الدين الرومى».

وأطلق اسم التكية المولوية على المكان الذى استعمله المولويون كملجأ للدراويش أى المريدين المولويين، حيث يقضون أوقاتهم فى العبادة وفى الذِكر الذى كان كثيرا ما يصاحَب بالرقص الدائرى الصوفى والموسيقى. والمولوية هى إحدى الطرق الصوفية. مؤسسها الشيخ جلال الدين الرومى (١٢٠٧هـ - ١٢٧٢هـ). وهو أفغانى الأصل والمولد، عاش معظم حياته فى مدينة قونية التركية، وقام بزيارات إلى دمشق وبغداد. وهو ناظم معظم الأشعار التى تنشد فى حلقة الذكر المولوية. واشتهرت الطريقة المولوية بتسامحها مع أهل الذمة ومع غير المسلمين أيًا كان معتقدهم وعرقهم،ويعدها بعض مؤرخى التصوف من تفرعات الطريقة القادرية.

اشتهرت الطريقة المولوية بما يعرف بالرقص الدائرى لمدة ساعات طويلة، حيث يدور الراقصون حول مركز الدائرة التى يقف فيها الشيخ، ويندمجون فى مشاعر روحية سامية ترقى بنفوسهم إلى مرتبة الصفاء الروحى فيتخلصون من المشاعر النفسية ويستغرقون فى وجد كامل يبعدهم عن العالم المادى ويأخذهم إلى الوجود الإلهى كما يرون.

فقد نشأت فكرة التكايا المولوية على أساس روحى فلسفى، فقاعة الرقص الأساسية أو المسرح المقام بكل تكية يضم ١٢ عمودا على أسماء

الأئمة الاثنى عشر عند الشيعة وبها رقم ثمانية دلالة على أبواب الجنة الثمانية وحملة العرش الثمانية.

ولا تزال الطريقة المولوية مستمرة حتى يومنا هذا فى مركزها الرئيسى فى قونية. ويوجد لها مراكز أخرى فى إسطنبول، وغاليبولى، وحلب. ورغم منع الحكومة التركية كل مظاهر التصوف إلا أن الجهات الرسمية فى تركيا تستخدم مراسم المولوية كجزء من الفولكلور التركى.

وفى مصر، كان يدعى أتباع المولويون الدراويش أوالجلاليون نسبة إلى جلال الدين الرومى. كما عرفوا بدراويش البكتاشية والذين هم من أصل تركى. وكان مكان تجمع المولويون يسمى التكية المولوية أو تكية الدراويش أو السمعخانة (أى مكان الإنصات).

ومن ميزات التكاية المولوية فى العصر الحديث أنها أصبحت مركزا لتطوير الفكر والموسيقى والشعر الخاص بالمولوية، فتحولت التكية المولوية بالقاهرة إلى مركز لفرقة المولوية الفنية التى تقدم عروض الرقص الصوفى المولوى والأناشيد المولوية.

تكية السلطان محمود خان

تقع تكية السلطان محمود خان فى شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقًا) قبل تقاطعه مع كل من شارعى سكة راتب وشارع الشيخ ريحان بمنطقة الحبانية، لذا عرفت باسم تكية الحبانية، وهى المنطقة التى تقع فيها.

وتعرف بوظيفتها المعمارية كونها تكية ومدرسة حيث كانت أول أمرها مدرسة أنشأها السلطان محمود خان سنة ١١٦٤هـ - ١٨٥٠ كما نقش على بابها، وكان بها مساكن للصوفية، ومكتبة عامرة. وقد ألحق بجوارها سبيل للماء ليشرب منه عامة الناس والمارة، ويعلو السبيل كتاب لتعليم الكتابة والقرآن للأطفال. ثم تحولت المدرسة مع الوقت إلى تكية للدراويش والصوفية، ومازال المبنى قائما إلى اليوم.

وجدير بالذكر أن بناء الأسبلة والكتاتيب صارت عادة حرص عليها سلاطين العثمانيين متبعين خطى أسلافهم من المماليك، فكانت المدرسة أو المسجد يلحق بها سبيل يروى عطش الظمآن، وكتاب لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم.

وتتكون التكية من فناء أوسط مكشوف تتوسطه فوارة للماء مغطاة بقبة خشبية محاطة بحديقة صغيرة بها أشجار، وكانت الفوارة ينبع منها الماء للوضوء. ويحيط بالفناء من جهاته الأربع ظلة تقوم على صف واحد من الأعمدة التى تحمل فوقها عقودا تطل على الفناء، وتقع خلف كل ظلة من هذه الظلات حجرات صغيرة معروفة باسم الخلاوى التى كان يقيم بها الطلبة وقت استخدامها كمدرسة ثم صارت لمبيت الدراويش والصوفية عقب تحول وظيفتها إلى تكية.

أما الظلة الجنوبية الشرقية لا يوجد بها خلاوى حيث يشغلها حجرة الدراسة أو مكان التدريس، والتى كانت تستخدم فى الوقت نفسه كمسجد، ويدلنا على ذلك المحراب الذى لا يزال موجودا بها حتى الآن.

وتطل واجهة المدرسة على شارع بورسعيد فى الناحية الشمالية الغربية، وبها كتلة المدخل التى تحوى النص التأسيسى للمبنى.

وفى الواجهة الرئيسية للمبنى توجد عدة محلات وتعرف فى الوثائق والمراجع التاريخية باسم حوانيت كان يصرف من ريع إيجارها على التكية.

□□□